الأنا النامي والآخر المغيَب في كتب الاطفال العربية

د. فادية حطيط

استاذة في كلية التربية–الجامعة اللبنانية

تشكل كتب الاطفال وسيلة فعالة في التنشئة الاجتماعية، فهي تقوم بطريقة غير مباشرة بتمرير نظام القيم المقبول اجتماعياً. وهي من خلال الانماط السلوكية التي تقدمها، تتوسل تقديم نماذج تماهيات يمكن للأطفال واليافعين الاقتداء به.

وكتب الاطفال ميدان واسع وهام من اجل نقل ثقافة المجتمع الى الاطفال الصغار، وهي من اكثر الأساليب إثارة للأهتمام، لكونها لا تعمل فقط على الصعيد الواعي، وإنما يشكل الوجدان العميق للمجتمع، من خلال الرسائل التي يبثها المؤلفون، جزءاً لا يتجزأ من عملية الكتابة. لا بل فإن المواقف التي يحملها البالغون، ستكون في اكثر مستوياتها عمقاً حين تنعكس في الكتابة للأطفال، حيث ان تجاوز الرقابات المتعددة امام الوصول الى الاطفال، يعني ان الموقف المنقول قد صار في عداد ثقافة المجتمع، وتخلَص من برانيته. بكلام آخر، ما ينقل في ادب الاطفال هو المستوى الأكثر مقبولية داخل المجتمع.

إن الزاوية التي يطل منها مؤلف كتب الاطفال، متعددة الطبقات. فهو أديب وكاتب ووالد ومعلم في الآن نفسه. هذه الوضعية تجعل الرسالة التي يحملها مثقلة بمعاني خاصة وهامة. إن مضمون كتب الاطفال تشكل نقطة التقاء ما بين الوجدان او اللاوعي الجمعي الموروث، وما بين الثقافة الراهنة التقليدية، وبين التطلعات التي يحملها المجتمع لمستقبله.

ولقد تطور ميدان ادب الاطفال عالمياً ومحلياً على نحو كبير. وفي الدول العربية يجري توظيف الاهتمام الكبير في هذا الميدان إن على صعيد الاسرة او المدرسة او المجتمع كافة. وسنكتفي بالاشارة الى الجوائز القيمة العديدة التي باتت تعطى للنشر وللتأليف وللرسم في هذا المجال.

وثمة دراسات عديدة اجريت وتجري حول مضامين هذه الكتب، بينت ان هذه الكتب تشكل مرآة عاكسة لثقافة المجتمعات الصادرة عنها[1]. وفي هذا التوجه، يتبين ان كتب الاطفال في الدول العربية التي على الرغم من حجم الرقابة الكبير على مضمونها، فإنها تنمَ اكثر فأكثر عن توجهات تربوية وثقافية جديدة، منها مثلاً توجه ظاهر نحو مزيد من المساواة بين الجنسين، ومنها ايضاً اعطاء الطفل حرية اكبر في التعبير وفي السلوك.

ولكن على الرغم من هذه التوجهات، فلقد بيَنا في دراسة سابقة لنا ان مسألة التعاطي مع الآخر الخارجي المختلف ليس لها الاولوية ذاتها التي نلاحظها في الكتب الصادرة في الخارج. وفي حين ان المجتمعات العربية منفتحة عملياً على الثقافات الأخرى، وهي تتمتع بحس الضيافة وتستقبل في احضانها العديد من ابناء الثقافات الأخرى، يعملون ويتفاعلون مع ابناء البلد، فان هذا الواقع لا ينعكس في الكتب الموجهة لأطفالهم. لا تسعى الكتب الى الخروج من مجتمعها، كما أنها لا تعتبر العناصر الوافدة او الدخيلة او الزائرة او المقيمة جزءاً داخلياً من صلب مجتمعها، بل نراها تتعامل معها وكأنها كائنات عابرة لا أثر لها في تكوين الثقافة[2].

كما بينا أن الآخر المختلف ثقافياً غائب وان قصص الاطفال تركز على عوالمها الداخلية. الاطفال في القصص يعيشون مع عائلاتهم، وفي امكنة ذات جدران، ونادراً ما يلتقون

[1] راجع كتب المؤتمرين الدوليين اللذين اجريا من قبل تجمع الباحثات اللبنانيات

[2] حطيط، فادية، حوار الثقافات في كتب الاطفال، مجلة افق ، العدد 431 ، 2014/05/15،مؤسسة الفكر العربي

بأناس من خارج بيئتهم. لا وجود لآخر من جنسية اخرى، بما فيها الجنسيات العربية، ولا وجود لتفاعل مع جماعات داخلية متنوعة فالحيز ضئيل للعلاقات ما بين المستويات الاجتماعية المختلفة. وان القناعة الضمنية لمؤلفي نصوص الأطفال هي أن الانتماء ينحصر في الجماعة المحلية (اسرة وجماعة). وفي الآونة الأخيرة بتنا نلحظ اهتماماً بموضوع المواطنة، ولكن لا اثر هاماً يتبدَى لما هو خارج نطاق الوطن (الدول العربية الاخرى، الدول الاجنبية، البيئة الكونية).

ولكن بما انه لا يمكن للقصص ان تجري بدون تعدد الشخصيات والمنظورات، فوجود الاخر في القصة، كما في الحياة، هو امر حتمي، من هناك نطرح السؤال: من هو الآخر في كتب الأطفال العربية؟ ما هي استراتيجيات التعامل معه؟ هذا ما ستحاول ورقتنا الجواب عليه من خلال دراسة عينة من قصص الاطفال العربية الصادرة في السنة الأخيرة، عن طريق تحليل مضمون هذه القصص والكشف عن توجهاتها المعلنة والضمنية المتعلقة بالعلاقة مع الآخر.

ولتشكيل هذه العينة سوف نأخذ كتب الأطفال التي تم اختيارها من قبل لجنة جائزة اتصالات لكتب الاطفال، وهي من الجوائز المهمة المخصصة لأدب الأطفال في العالم العربي تصدر عن إمارة الشارقة. وتعتبر هذه الكتب من افضل الكتب العربية الحديثة.

ملخص عن مضمون هذه الكتب هي:

سمسم في بطن ماما (لبنان): وموضوعها أم حامل تشرح لطفلتها التي تسألها لماذا بطنها كبير كيف يتكون الجنين شهراً بشهر.

حفلة شاي في قصر سندريللا (السعودية): وموضوعها سيدة بالغة تجادل ابطال قصص الاطفال حول وضعياتهم غير العقلانية والتي لا تناسب ثقافة المجتمع الحديثة. وهي نوع من جردة الحساب وتصويب الافكار التي جرى تمريرها للأطفال للتفكير.

ذاكرة المدينة (لبنان): وتتحدث عن علاقة الكاتبة بمدينتها. فتنقل احاسيسها وهي تسير في شوارعها ممسكة بيد والدتها حيث الوان وروائح واصوات تحمل معها هوية المدينة، وتطبع في ذاكرة الفتاة تاريخاً مضى ومستقبلا يعبق بالذكريات.

دجاجة البيت الذي رحل (لبنان): وهي عن دجاجة تقاوم المخاطر وتتغلب عليها بعد ان بقيت وحيدة في قرية رحل عنها اهلها بسبب الحرب التي استمرت اكثر من سنة. تتعرض لخطر الموت اكثر من مرة ولكنها تواجه الخطر وتتغلب عليه الى ان يعود اهل القرية وتعود الحياة الى طبيعتها.

نزل الذرة الصفراء (الاردن) : وهي عن الابن الأكبر لعائلة تعيش في قرية بعيدة من زراعة الذرة. تتعرض القرية لمحاولة تحويلها الى حي صناعي من قبل مستثمرين جاءوا من المدينة.

الخروج من الفقاعة (مصر)[3]: وهي عن طفل اسمه سامر مصاب بالسرطان وهو على اعتاب المراهقة. ويتكلم عن تجربته واضطرابه لطريقة التعامل مع المرض.

بلا قبعة (الكويت) : وهي عن فتاة ولدت تلبس قبعة مثل اهل المدينة، ولكنها قررت رفع القبعة لترى ماذا يوجد في الخارج، ولما اراد اهل المدينة طردها لأنها صارت مختلفة، قررت ان تصنع قبعة اخرى ترى من خلالها العالم، واقنعت اهل المدينة بتجربتها فوافقوا وفرحوا بها.

[3] لم نستطع الحصول على هذه القصة، لذا ننقل الملخص عن المواقع الالكترونية المختلفة

انا وماه (عُمان): قصة طفل حساس اسمه آزان تربطه علاقة قوية بجدته "ماه" يحب زيارة بيتها والاستماع الى حكاياتها. الى ان جاء يوم فقد عزان فيه جدته. تقدم القصة رؤية لموضوعة الحياة وفقدان الأحبة بعد موتهم من خلال محاولات والدة آزان الإجابة عن أسئلته الصعبة.

بغلة القاضي (العراق)[4]: حكاية قَديمة من بغداد عاصمة التراث والحكايات... تتكلم عن بغلة خرجت من مربطها، ثم مشت نحو الإبريق ودخلت فيه حتى غابت عن الأنظار... وجرت أحداث القصة بغرابة وبساطة...

أنشودة العودة (مصر)[5]: وهي قصة عن لقاء وصداقة بين بطة وفتاة. البطة منعها جناحها الكسير من اللحاق بوالديها، والفتاة فاقدة السمع والنطق التي اضطرتها ظروف سفر والديها في رحلة طويلة للانتقال للحياة في بيت جديها الريفي.

تكشف قراءة هذه القصص عن سردية عنوانها "مركزية انوية ". فأنا الشخصية المركزية يسيطر على السرد، وتخفت اصوات الآخر، أيا كان هذا الآخر، شبيهاً ام اجنبياً، صديقاً او عدواً. مما يعني ان السعي الأساسي للكتابة ما زال تربوياً نضوجياً. والملاحظ في كتب الأطفال الحديثة، ان المشاعر والعواطف والأحلام والاضطرابات الداخلية باتت لها مساحة اكبر. وفكثيراً ما يكون بطل القصة الطفل هو راويها، وله سلطة التحكم بالاحداث، وهو ما نرى انه اتجاه جديد في أدب الاطفال العربي، ويمثل مرحلة اشد تطوراً من المرحلة السابقة حيث كان الراوي البالغ يتحكم بالاحداث، وحيث الرؤية الخارجية كانت هي غالبة. في القصص التي بين يدينا تنمو الانا

[4] لم نستطع الحصول على هذه القصة، لذا ننقل الملخص عن المواقع الالكترونية المختلفة
[5] لم نستطع الحصول على هذه القصة، لذا ننقل الملخص عن المواقع الالكترونية المختلفة

(قصة سمسم في بطن ماما) ولكن ما زال عودها لم يشتد كفاية حتى تسمح بكينونة قوية لآخر يدخل في علاقة صراعية معها ويمكن ان يهددها.

هذه الانا النامية، هي غير الأنا المتضخمة التي، كما بينت احدى الدراسات، ميزت الشخصية العربية لزمن طويل، وكانت ردة فعل على الانكسار والهزيمة امام العدو الاسرائيلي في العام 67[6]. إنها انا قلقة ولم تعرف بعد الحدود التي يمكن ان تتخطاها. إن الوظيفة التربوية للسرد ما زالت قوية وإن بشكل غير مباشر. يشبه الأمر واقع ان سلطة التربية في المجتمع قد ضعفت غير انها لم تذهب بعيداً فما زالت خلف الباب تنظر وتراقب هذه الطفل الذي اجبرت على إعطائه حيَزاً للقول والفعل.

هذه الأنا النامية يشتد عودها في ظل آخر يمنحها القوة، وهذا الآخر هو بشكل عام داعم، إنه آخر قريب ومطمئن. خاصة وإن الأنا النامية ما زالت في طور الانبناء. فكيف ترتسم علاقة الأنا النامية بالآخر في هذه القصص؟

- **انا النامية المستقلة في ظل آخر أسروي:**

ما زالت الاسرة الى حد كبير هي الاطار الذي يوضع فيه الاطفال. العلاقات تنشأ بين الاطفال واهلهم وأشقائهم. والتحديات تجري ليس بمواجهة وإنما بمعية افراد الاسرة. وحتى في القصص التي نرى أبطالها خارج الجدران، فإن الاسرة تبقى حاضرة.

تشكل الأسرة حصناً منيعاً لا يبتغى هدمه، لا بل ثمة من يدعو الى التنبه الى الى اي محاولة لتقويضها ذلك "إن التهديدات التي يتعرض لها الأطفال اليوم، ناشئة عن حدوث تراجع في

[6] إياد عماوي، الأنا والآخر ودورها في رسم وتحديد العلاقة ما بين الوطن العربي والغرب، طولكرم 2007 http://www.minshawi.com/other/amawi1.pdf

وظائف الأسرة، ليس فقط في حالة خروج الأم للعمل، بل حتى في حالة بقائها في البيت.... على عكس ما قد يعتقد البعض، فإن الأسرة مدعوة في عصر العولمة إلى استرجاع مكانتها وأدوارها وتجديدها. إن مكانة الأسرة ينبغي أن تبقى راسخة، أما ما يتغير تبعا للتحولات الخارجية، فهو أدوارها ووظائفها ، وذلك حرصا على التكيف مع الواقع الجديد"[7].

من هنا نفهم، ان القصص حتى حين تحاول ان ترسم صورة انا مستقلة كما هي حال بطلة قصة "ذاكرة المدينة" التي تخرج من البيت والمدرسة وتسير في الشارع لتنقل تجربتها واحاسيسها إزاء شوارع مدينتها، إلا اننا نراها تسير ممسكة بيد امها كما لو ان ثمة خوفاً من التفلت والاستقلالية التامة. كذلك نلاحظ ان نجلا بطلة قصة "انشودة العودة" التي تلتقي بالبطة وتتعلم كيفية التغلب على اضطرابها، فإن مشكلتها الاساسية ما كانت لتنشأ لولا انها لم تبتعد عن اهلها".

إذن هي انا تلتمس طريق الاستقلالية بالاعتماد على الآخر الأسري الداعم وليس المواجه لهذه الاستقلالية.

- **أنا النامية المدينية في ظل آخر ريفي:**

تسير بطلة قصة "ذاكرة المدينة" في شوارع المدينة حاملة " كل الاصوات والوجوه والروائح هوية لمدينة تعودت ان تعيش وتتعايش مع كل التناقضات. ذاكرة المكان والزمان تحدد شخصية كل واحد منا وتجعلنا جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المدينة وذاكرتها... أفكر...كيف ان وجودي ومروري بهذه الشوارع الضيقة هو اضافة لذاكرة الطريق والرصيف والشارع"

[7] عبدالله الخياري، ثقافة الطفل وتحديات العولمة، التدريس مجلة كلية العلوم التربوية، العدد 5، السلسلة الجديدة، 2013، ص.ص 39-38

هذه البطلة الصغيرة المنطلقة والمتصالحة مع مدينتها وتناقضاتها والواعية لكونها اضافة وليست عابرة من غير أثر، تبدو الاكثر تمثيلا لهذه الانا النامية. إنه توجه جديد يعطي المدينة قيمة واهمية، وليس كما هو الميل الذكوري التقليدي لدى الادباء لتمجيد الريف والقرية، موطئ قدمهم ومسقط رأسهم.

ولكن هذه العلاقة المتصالحة والانضاجية ما بين الانا والمدينة لم تتكرس بالكامل. فنلاحظ بالمقابل ان هذه المدينة لم تستطع التغلب على الإنشداد الى الريف حيث الاسرة والتقاليد والتراث والماضي، وتصور على انها استقرار وامان بمقابل تلك الحركة والزمن المتسارع والضجة التي تصورها قصة "ذاكرة المدينة".

ما زالت المواجهة ما بين الريف والمدينة واضحة للعيان في الثقافة العربية. وما زال الريف يشكل ملجأ وحماية في حين ان المدينة تشكل خطراً. في قصة " نزل الذرة الصفراء"، يستحوذ على الاهل الخوف من اكتساح المدينة للقرية وفقدان تقاليدها. وفي قصة "دجاجة البيت الذي رحل" تجري احداث القصة كلها في القرية. ايضاً في قصة "انا وماه" تروي قصة بطل وعلاقته بجدته في القرية. ايضا قصة بغلة القاضي التي تجري في زمن تراثي وقروي.

إذن يبقى الريف قابعاً في الوجدان، وكأن الثقافة ما زلت تحن الى ماضي القرية وتقاليدها. تبدو القرية في علاقة تضاد وصراع مع المدينة، التي يجري تصويرها ككاسحة لهناء العيش او مكان إقامة مؤقت بسبب الحرب مثلا.

في احدى الدراسات لشعر بدر شاكر السياب، يظهر الكره هذا الشاعر الكبير جلياً للمدينة، فلقد "عانى السياب كثيرا من صدمة زمن الحاضر(المدينة)، حيث رجع إلى (جيكور) ووجدها قد

تغيرت فهو لم يستطع أن يحب المدينة أو يأنس إلى بيئتها، فنجده يقول في قصيدته(جيكور والمدينة):

وتلتف حولي دروبُ المدينة

حبالا من الطين يمضُغْن قلبي، ويُعْطِين عن جَمْرةٍ فيه طينة

حبالا من النار يَجْلِدْن عري الحقولِ الحزينة

ويَحْرِقْنَ جَيْكُورَ في قاع روحي، ويزرعْنَ فيها رماد الضَّغينة

وتبدو لنا صورة المدينة هنا غاية في الرعب، وكأن لها يدا تضغط على أنفاس الشاعر، فتولد لديه مشاعر القسوة، والغربة والعزلة" [8].

الغريب ان دروب المدينة، هي موضوع مشترك بين قصة "ذاكرة المدينة" وقصيدة السياب. هذه الدروب كانت ملأى بالصور الجميلة لدى بطلة القصة الطفلة التي تمثل ثقافة جديدة وحديثة مقابل نص السياب الكاره والذي يمثل ماضياً ما زال طاغياً في أذهان الجيل البالغ[9]

وثمة دراسات عديدة حول علاقة الشعراء والادباء بالمدينة، تتوصل الى وجود تنوع في المقاربات ناتجة عن المنشأ الاجتماعي للأديب، فهو إما قادم من الريف ويشعر بالانسلاخ فيضفي على المدينة جواً من السلبية بوصفها تقتلع الناس من امكانهم ولا تعطيهم شعوراً بالانتماء وإما هو موقف ايجابي، خصوصاً حين يتعلق الموضوع بمدن ذات تاريخ وعراقة كمدينة القدس مثلا حيث

[8] خيرة جريو، ثنائية المدينة والريف في شعر بدر شاكر السياب، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، المجلد 22، العدد 2، 2014، http://www.uobabylon.edu.iq/publications/humanities_edition12/humanities_ed12_8.doc

[9] وثمة من يرى أن ضيق الشاعر العربي بالمدينة (في أغلبه) يأتي من حنينه الأصيل للطبيعة- أو حنينه الى تاريخ المدينة: دمشق، بغداد، غرناطة... ويرى الباحث أنن موقف العداء للمدينة هو في الأصل غير وارد لدى الشاعر العربي، وإنما تأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الغربي والفلسفات الغربية، مما جعل بعض الشعراء يتخذون موقفاً معادياً للمدينة، هو موقف غير أصيل، تقليدي على الأغلب. انظر محمد محمود البشتاوي، المدينة في الشعر الفلسطيني المعاصر، http://www.drmosad.com/index287.htm

هناك الكثير من الكتابات التي تمجدها. وفي اللائحة القصيرة، التي تشكل عينتنا نعثر على قصة محمود شقير "القدس مدينتي الاولى" في هذا الجانب.

باختصار إن الأنا النامية المدينية تبدو غير قادرة على التفلت من جذورها الريفية، ولكن تتضاءل اهمية الريف بدرجة اكبر بكثير من تضاؤل اهمية الاسرة.

- **انا النامية الفردية في ظل الآخر الجماعي:**

قصة "بلا قبعة" للكاتبة الكويتية لطيفة بطي تعطينا نموذجاً عن فرد يسعى للاعتراف بحقه في الاختلاف. اذ تبدو بطلة القصة فرداً ولا نعرف اسرتها. وموضوع القصة هو فردية هذه الفتاة واختلافها عن الآخرين وتمكنها من فرض رؤيتها وتغيير العادات السائدة.

بمقابل هذه الأنا المتمردة المختلفة والتي ترفض ان تكون مثل الآخرين والتي تنجح في فرض ارادتها على الآخرين، هناك عدد من القصص التي تعلي من شأن الجماعة وتظهرها داعمة وحاضنة ودافئة. في قصة "دجاجة البيت الذي رحل" ترحل الجماعة معاً، بدون اي سؤال. هناك قرار واحد تم اتخاذه بالرحيل ولم يناقشه احد، إنه قرار الجماعة. لم نعرف من اين صدر. وللمفارقة نجد ان الابنة الصغيرة تبكي لأنها تشعر بالافتقاد.

ايضا في قصة "نزل الذرة الصفراء" تبدو الجماعة حاضرة بقوة. لا خلاف ولا شقاق والأطفال يعيشون ملء حريتهم داخل بوتقة الجماعة. ولكن في هذه القصة نعثر على شخصية الاخت المتعلمة التي تحب القيام باختبارات علمية وتتصل بعوالم خارجية.

على الرغم من نزوع شخوص القصص الى الاستقلال الذاتي، إلا ان هذا الاستقلال يجري بدون صراع فعلي مع الجماعة التي هي بشكل او بآخر امتداد للاسرة.

- **أنا النامية الطفولية في ظل الآخر البالغ:**

إن الأدب العربي الموجه للأطفال كان حتى زمن قريب يتعامل مع الأطفال كمتلقين سلبيين. يملي عليهم المؤلفون دروسهم ومواعظم كما لو كانوا معلمين او اهل. ولقد تغير هذا التوجه، مع الجيل الجديد من كتَاب الأطفال، حيث كثيراً ما صرنا نرى قصصاً يكون راويها الطفل نفسه. اي ان وجهة نظر الطفل باتت محترمة ومأخوذة بالاعتبار (معظم قصص العينة تجري بلسان الطفل نفسه). كما ان واقع الطفل الحالي صار هو القضية المركزية، ليس الماضي (اي ماضي الجماعة) وليس المستقبل (اي ما يرسمه المؤلف البالغ) بل ان زمن الطفل ورغباته هي المحددة لتوجه القصة.

على الرغم من ذلك فإن البالغ مقيم ولا يغادر دوره التربوي، وإن كان هذا الدور قد طاله التغيير وصار اكثر حداثة واكثر قرباً من الاطفال انفسهم. في قصة "حفلة شاي في قصر سندريللا" تقوم المؤلفة بمحاسبة ابطال القصص عن افعالهم التي ترى فيها غياب المنطق والانصياع وعدم السعي لتغيير قدرهم. هذا الحوار ما بين انا الطفل والبالغ يشير الى آخر داعم يقف دائماً الى جانب الطفل.

والملاحظ كذلك التضاؤل الملحوظ في وجود الاجداد، فهؤلاء ان وجدوا فإنهم إما يموتون (كما في قصة "انا وماه") وإما لا يعرفون التواصل مع الاطفال (كما في قصة "أنشودة العودة"). وما عادوا يمثلون الآباء الحكماء. وضعف دورهم يقابله دور اقوى للأهل وللأخوة وللأصدقاء (كما في قصة "نزل الذرة الصفراء")

تنحصر العلاقة اكثر بين جيلين لا اكثر، ويضعف حضور الجيل الثالث الذي لم يعد يجد له مكاناً في الزمن الحالي. وليست العلاقة ما بين الجيلين ذات منحى واحد، توجيهي او ارشادي،

إنها اكثر علاقة صداقة وتفهم ودعم. فأنا الطفل هي الأكثر أهمية وهي ما تتكاتف الجهود من اجل نموه ونضوجه.

- **انا النامية ذات الاعاقة في ظل الآخر القادر:**

إذا كانت ثقافة الطفل تتغير، فإن اكثر منحى يبدو التغير فيه هو في جانب الاعتراف بالإعاقة. فالكتابات متزايدة الى حد يثير الدهشة حول الاعاقة والمعوقين، ولا يضاهيها في العناية اي جانب آخر. فكأنما أدب الأطفال وجد في الاعاقة منفساً لتعليم كل معنى الغيرية والاختلاف والتنوع. طفل مريض (كما في قصة "الخروج من الفقاعة") او طفل لا يسمع (كما في اغنية "انشودة العودة")، يختزل المرض والاعاقة الصعوبة التي يمر بها الأطفال، وهما مشكلتان صادرتان عن الأنا نفسها، وليس عن المجتمع وممثليه او اية اوضاع خارجية. اي ان الطفل في وضعيه تصارع مع الذات من اجل تجاوز عقباته.

ومعالجة موضوع الاعاقة وذوي الاحتياجات الخاصة الذي تتزايد اهميته في السنوات الاخيرة في الانتاج التربوي والأدبي، والمتساوق مع الاهتمام العالمي بالموضوع، إنما يعبر ايضاً عن نوع من الاهتمام بالشأن الذاتي وبالاعتراف بالجانب الضعيف من الشخصية. ليس فقط السوي، السليم، المتمتع بالسلطة هو من ينبغي تسليط الضوء واعطاؤه أحقية الظهور والتمثيل، بل ايضا ذلك الذي كان الى زمن بعيد مفترض به ان يكون في الهامش.

- **أنا النامية المحلية في ظل آخر خارجي:**

الملفت في قصص العينة غياب اي شخص من خارج البيئة المحلية للقصة. لا اطفال من جنسيات عربية او اجنبية تلتقي، ولا تنشأ صداقات إلا بين اناس متشابهين، او بين اشخاص وحيوانات (كما في قصة "انشودة العودة"، او قصة "دجاجة البيت الذي رحل").

في قصة "نزل الذرة الصفراء"، تحضر الهند بوصفها عالماً خارجياً تتصل به فتاة القصة من اجل مساعدة الاسد المريض. والاتصال ينجح وتبدو الهند دولة صديقة غير انه يتم عبر رسالة اي عن بعد. ولا تفسح القصة اي مجال للقاء حقيقي ما بين المحلي والعالمي.

كما لو أن عالم الاطفال ما زال مسيجاً بالاسرة والجماعة ولا يسمح لأي عنصر أجنبي بالدخول اليه. ولا تفسح القصص لأي مجال للتفاعل الفعلي مع الخارج.

- **أنا النامية الواقعية في ظل الآخر الغريب Exotique:**

بإزاء ضعف حضور المختلف، فإن "الهامشي الغريب" يبدو أكثر حضوراً، اسماء الأماكن (قرية بهلا مثلا) والاشخاص(مثل ماه وعزان ومينا وسيسو وسيبال ذات النفحة غير العربية) وتدل على عوالم جديدة خارج السائد المعروف (عالم الغجر مثلا). إنه نوع من اكتناه المناطق المغلقة والمعتمة في جغرافيا الثقافة العربية. مثل هذا الحضور والاجواء السردية الجديدة والمدهشة، يجعل القارئ في تساؤل دائم هل هذه فعلا منطقة عربية؟ ويلاحظ الدارس إن الكتابة الجديدة للأطفال تنبئ عن فتح لعوالم جديدة للثقافة، فتدخل فئات واجواء لم تكن مألوفة لدى القارئ العربي بالغاً كان ام طفلا. في قصة "نزل النذرة الصفراء" لا شيء يوحي بالعوالم الفلسطينية/الاردنية مثلما عهدناها في النتاج السردي المتداول. تجري احداث القصة في قرية تعيش على موسم الذرة. ووالد بطل القصة انشأ نزلا في هذه القرية يستريح فيه العابرون الى الجنوب في موسم التجاره، اطلق عليه اسم نزل الذرة الصفراء...والأم تقوم بدور مديرة النزل

"وهي سمينة وطويلة، شعرها قصير تربطه الى الخلف بقطعة قماش مضحكة، وهي ذكية.... وفي ليال كثيرة تطفئ التلفاز في غرفة المعيشة وتبدأ في الغناء بصوتها الذي لا يشبهه اي صوت في الجبال، وتغني لنا وللنزلاء اغنية الذرة الصفراء تنضج بين يديَ العجوز الاعمى، فتكون ليلة مجنونة لا تشبه إلا مذاق كعكة الذرة بالشوكولا التي تعدها لنا بيديها في ليالي الشتاء الباردة" (ص 14).

الام التي يعطيها الابن صفات جسمانية محددة، والذكية والتي يعبر الأب عن تعلقها بها والتي تغنى للغرباء. وتمسك اهل القرية بنبتة الذره واستنباط اغاني وانواع من الأكل الخاص بها. والالفة مع حيوانات القرية، الاخت التي تربي اسداً عجوزاً اسمه سيسو... والكلب سوكي الكسول الذي يحرس البيت.. والقط رمان. كل هذه العناصر تؤلف نصاً غير مألوف وتخرج الثقافة العربية من تنميطيتها السائدة (الأم الحنونة، شجرة الزيتون، الحيوانات الأليفة...)

نشير الى هذا المنحى الحديث الذي يسعى لتوليد مساحة ثقافية جديدة، ونميل لاعتباره رافداً لمسار الكتابة التي ليس فقط تحفر في الذات عميقاً وإنما توسع من حدودها.

- **الانا النامية الأنثوية المغايرة مقابل الآخر الذكوري التقليدي:**

يتبدى في قصص العينة توجه واضح نحو اعتبار الأنوثة سمة تجديدية في الثقافة المسيطرة. ونكتشف نموذج أنا الانثوي المتمثل بالبنت البطلة المتصالحة مع المدينة (قصة "ذاكرة المدينة") والمتمردة على التقاليد (قصة "بلا قبعة") والتي تتصل بالثقافة الخارجية (قصة "نزل الذرة الصفراء") والتي تحل مشكلتها بعيداً عن اهلها (قصة "انشودة العودة").

ليس من قبيل الصدفة ان تكون الإناث في قصص العينة هن من يتمتعن بالجرأة والقدرة وتحمل مسؤولية التغيير. تعكس قصص الاطفال ما صار شبه يقين. على النساء العربيات الخروج من انعزالهن القسري او الطوعي، وإلا لا تغيير فعلياً سوف يحدث في مجتمعاتهن. هذه القناعة المتولدة في الأذهان والمنقولة الى السردية الحديثة، تتلقفها قصص الأطفال وتنقلها اليهم.

وايضاً نرى في هذا التوجه، نوعاً من سبر داخلي للذات العربية في جانبها الأنثوي الذي كان مغيباً حتى زمن طويل، ويشي بنضوج أنا المجتمع ودخوله في الحداثة.

خلاصة عامة:

إن الكتابة الطفلية العربية مهجوسة في أناها العربية، تدخل في عمقها، توسع من آفاقها المحلية، تنضج من تجربتها، قبل ان تجعلها تلتقي بالآخر المختلف. ذلك على ما يبدو يحتاج مزيداً من الوقت والنضوج والثقة بالذات. والملاحظ بأن هدف قصص الأطفال يقوم أكثر على تجريد "الأنا" وتعريته أمام ذاته في مدار يسيّجه الآخر[10] ، أكثر من كونها تضع هذه الانا في صراع متكافئ مع الآخر. إن هذا الآخر يلعب دور المرآة، لا اكثر. فلا تفاعل ولا صراع ولا مواجهة، من شأنها ان تعطي الانا دفعاً للتكون بشكل مغاير. إن القصص تصور "انا" يكبر بواسطة اوليات اولها دعم الاسرة، ثانيها التجارب الذاتية والشخصية.

تكشف لنا مجموعة قصص العينة التي اختيرت لتمثل الانطلاقة الجديدة لثقافة الاطفال، ان هذه الثقافة تتصارع اولا مع ماضيها المتمثل بالريف والاجداد والتقاليد. ويتجسد هذا الصراع اولا بخروج الاناث كما المعوقين كما الأطفال من الحيز المغلق الذي كانو مسجونين فيه. أما أسلحة

[10] ياقوت بلحر، الآخرية في رواية نوار اللوز لواسيني الاعرج، دار ناشري للنشر الالكتروني، 2012، http://nashiri.net/articles/literature-and-art/5211-2012-08-23-11-46-31.html

هذا الصراع فتتمثل اكثر باوالية الاستيعاب والتفهم والتحقق الذاتي الداخلي، أكثر من اوالية الهدم والتجاوز. ثمة قبول بالواقع وانغراس فيه وسبر لغوره. يشعر قارئ القصص بأن الشخصية تفتش اكثر عن أناها وتسعى لإنضاجها. وتتشارك الأنا الفردية مع الأسرة والجماعة في هذا السعي. لا يشكل الآخر الخارجي قضية ملحة. فقبل ان توضع الأنا في علاقة مع هذا الآخر، عليها ان تعرف امكانياتها وتنمي كفاءتها الداخلية. تتحرر الأنا من تقاليدها الريفية الماضوية العتيقة، ولكنها في الآن نفسه تنسجم مع محيطها وتسعى للتكيف معه والى تطويره. اما الصراعات التي تشير الى بناء مستقبل منشود، مندرج في إطار كوني معولم، فيبدو أنها ما زالت مغيبة بانتظار ان تنضج الأنا النامية وتتخطى معوّقاتها الداخلية.

لا حروب ولا صراعات ولا هدم ولا تجاوز... الهم الأساسي منصب على الأنا، اما الآخر فالأفضل اغلاق الباب بوجهه.

المراجع:

[1] - فادية حطيط، حوار الثقافات في كتب الاطفال، افق، العدد 431، 15 ايا 2014، مؤسسة الفكر العربي.
[2] - إياد عماوي، الأنا والآخر ودورها في رسم وتحديد العلاقة ما بين الوطن العربي والغرب، طولكرم 2007 http://www.minshawi.com/other/amawi1.pdf
[3] - عبدالله الخياري، ثقافة الطفل وتحديات العولمة، التدريس مجلة كلية العلوم التربوية، العدد 5، السلسلة الجديدة، 2013، ص.ص 38-39
[4]- خيرة جريو، ثنائية المدينة والريف في شعر بدر شاكر السياب، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، المجلد 22، العدد 2، 2014، http://www.uobabylon.edu.iq/publications/humanities_edition12/humanities_ed12_8.doc
[5]- حمد محمود البشتاوي، المدينة في الشعر الفلسطيني المعاصر، http://www.drmosad.com/index287.htm
[6]- ياقوت بلحر، الآخرية في رواية نوار اللوز لواسيني الاعرج، دار ناشري للنشر الالكتروني، 2012، http://nashiri.net/articles/literature-and-art/5211-2012-08-23-11-46-31.html